obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــداء

إلى روح جدتى الحبيبة

التى كانت بالنسبة لى نعم الونيس ونعم السمير، وكانت دوماً تحكى لى - أثناء طفولتى - قصصاً وحكايات كثيرة ومثيرة، نبهتنى إلى ما يتسم به عالم الأساطير من جاذبية وتأثير ..

أمل مبروك

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

فلسفة الدين

obeikandl.com

obeikandl.com

الدين ظاهرة صاحبت الإنسان منذ نشأته على ظهر الأرض، فى جميع العصور وفى شتى أنحاء المعمورة. ومنذ فجر التاريخ تميز الإنسان بالتدين. وإذا كان أرسطو قد عرَّف الإنسان بأنه "حيوان ناطق"، أى "مفكر"، فقد عرَّفه غيره من الفلاسفة بأنه "حيوان متدين". فذهب "هيجل" مثلاً إلى "أن الإنسان وحده هو الذى يمكن أن يكون له دين، وأن الحيوانات تفتقر إلى الدين بقدر افتقارها إلى القانون والأخلاق"، وذلك لأن التدين عنصر أساسى فى تكوين الإنسان، والشعور الدينى إنما يكمن فى أعماق كل قلب بشرى؛ بل هو يدخل فى صميم ماهيته الجوهرية.

والبشرية منذ وعت تؤمن بوجود إله، حدث هذا فى الشرق والغرب على السواء. وهذا معناه أن الدين ليس مرحلة منقضية من تاريخ الفكر الإنسانى، بل هو سمة متأصلة فى هذا الفكر. وإذا كانت هذه السمة قد أعلنت عن نفسها زمنياً قبل غيرها – فكان الدين مصدراً بدئياً للثقافة الإنسانية – فإن كل المؤشرات تدل على أنه مازال حياً ومؤثراً بطريقة لا يمكن تجاهلها، ولهذا لن يتسنى لنا أبداً فهم الحاضر الفكرى للبشرية إذا أغفلنا هذا العنصر الأساسى ألا وهو "الدين".

ومعنى ذلك كله، أن الفكرة التى تقول أن الدين سوف يزول أو أن المكتشفات العلمية سوف تقضى عليه تماماً هى فكرة خاطئة، ويتضح خطؤها إذا ما أدركنا أن جوهر الدين يتمثل فى "الخبرة الدينية" التى تستند إلى مواقف فى حياة الإنسان يمكن أن نسميها بـ "المواقف الحدية" وهى التى تعبر عن حدود لقدرته. ولن يستطيع العلم تجاوز مثل هذه المواقف، وذلك مثل عدم قدرة الإنسان على الإفلات من الموت. فإذا كان العلم يستطيع أن يعمل على إطالة حياة الإنسان فهو لا يستطيع مطلقاً أن يجعله يهرب من المَوت، ومن هنا ارتبط تفسير الموت وما بعد الموت بفلسفة الدين.

مثل هذه المواقف الحدية هى التى تحدد ماهية الإنسان ذاتها، فضلاً عن أنها تجعلنا على دراية بطبيعته الحقيقية، وكلما تقبل المرء هذه الحدود –

بوصفها جزءاً من وجوده الجوهرى – تقدم بخطى أسرع نحو الدين، ونحو الفهم الصحيح للحقيقة التى تقول أننا نعتمد فى وجودنا على قوى موضوعية يتحدد عن طريقها وجودنا كله، وهذه الحقيقة هى التى يهتم بها الدين .

ونظراً لأهمية هذا الموضوع حاولنا معالجته فى هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ. وقد حرصنا فى هذه المعالجة على اتباع منهج تحليلى ذو طابع تاريخى، كما قسمنا الكتاب إلى ستة فصول وذلك على النحو الآتى :

الفصل الأول: عنوانه "**ما هو الدين** ؟ " فى بداية هذا الفصل بيَّنا أن كلمة "الدين" من الكلمات المتداولة فى شتى حضارات الإنسان، وربما كانت أكثرها قرباً منه والتصاقاً به؛ لأنها تمس حياته وأخلاقه وسلوكه وعاداته. باختصار أنها تتغلغل فى جوانب الحياة البشرية بأسرها وتسيطر عليها وتوجهها فى أحيان كثيرة. ومع ذلك فإن تعريفها أو تحديدها أمر بالغ الصعوبة والتعقيد. كذلك تحدثنا عن "تعريف الدين" وبيَّنا أن معظم التعريفات واحدية الجانب، أى أنها تعبر عن جانب واحد فحسب وتترك بقية الجوانب الأخرى. والسبب فى ذلك يرجع إلى أن كل مفكر إنما يصوغ تعريفه من واقع معتقداته الخاصة. وأنهينا الفصل بتحديد المعنى اللغوى لكلمة "الدين" ووجوه تصريفها.

أما **الفصل الثانى**: فقد جعلنا عنوانه "**الأسطورة والدين**" أوضحنا فيه كيف تعبر الأسطورة عن المضمون العميق الذى يتعلق بالكون والوجود وحياة الإنسان. فقد كانت الأسطورة فى أبسط أشكالها وأوضح مظاهرها فطرية تتضمن بعض الدوافع التى تعد بمثابة إرهاصات لمثل دينية عليا، فهى ديانة بدائية ومن ثم تحمل طابع القداسة. كذلك أوردنا المعانى المختلفة للأسطورة وتمييزها عن بقية الأجناس الأدبية الأخرى، كما تحدثنا عن تقسيم علماء الأنثروبولوجيا للأسطورة إلى عدة أنواع توضح الدور الوظيفى والرمزى الذى قامت به فى تفسير وتعليل ظواهر الطبيعة، ثم علاقتها بطقوس العبادة والسحر. ثم بيَّنا أن الطابع السحرى للأسطورة وأثرها الفعال فى توصيل الأفكار المجردة وتثبيت المعتقدات وحفظها وتداولها بين الأجيال، يفسر لنا الوحدة المصيرية بين الأسطورة والمعتقد الدينى .

وقد خصصنا **الفصل الثالث** للحديث عن "**المعتقدات الدينية فى العالم القديم**" ذلك لأن هذه المعتقدات هى أول أشكال التعبير عن الخبرة الدينية التى خرجت من حيز الانفعال العاطفى إلى حيز التأمل الذهنى، كما تعبر أيضاً عن روح الجماعة التى تعمل على صياغتها وتداولها بين الأجيال. ولهذا كان من الضرورى أن نستعرض معتقدات العالم القديم التى تتمثل فى "ديانة مصر القديمة" و"بلاد ما بين النهرين" و"بلاد اليونان" ولكن انصب تركيزنا على بزوغ الفكر الفلسفى وبدايته فى القرن السادس ق.م وعلاقة الفلسفة بالأسطورة .

وإذا انتقلنا إلى **الفصل الرابع** فسنجد عنوانه: "**فلسفة الدين فى العصر الوسيط**" وقد بيَّنا فيه أن الفكرة التى كانت سائدة فى هذا العصر، هى تلك التى تنادى بعجز العقل البشرى وحده بغير نور الإيمان عن الإحاطة بكثير من مسائل ما بعد الطبيعة، ومن هنا خضعت الفلسفة للدين أو العقل للنقل خضوعاً تاماً فى القرن الثالث عشر الميلادى. وفى إطار ذلك تحدثنا عن العصر المسيحى والفترة التى عاش فيها القديس "أوغسطين" والتى تسمى بعصر الآباء، حيث كان التفكير مقتصراً – فى هذه الفترة – على آباء الكنيسة الذين حاولوا الدفاع عن الدين المسيحى ضد الغارات العنيفة التى وُجهت إليه. وتوقفنا طويلاً – فى هذا الفصل – أمام مشكلة الألوهية واستعرضنا أدلة وجود الله عند القديس "أنسلم" والقديس "توما الاكوينى" كما تحدثنا أيضاً عن العصر الإسلامى والتيارات الفكرية المختلفة التى سادت فيه، وكيف أنصب اهتمام أغلب هذه التيارات على مشكلة العلاقة بين الفلسفة والدين مثل تيار المتكلمين وبصفة خاصة "المعتزلة". وتعرضنا للبرهنة على وجود الله عند فلاسفة الإسلام مثل "الكندى" و"ابن رشد" .

أما **الفصل الخامس** الذى عنوانه: "**فلسفة الدين فى العصر الحديث**" فقد أوضحنا فيه الملامح العامة للتفسير الدينى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وبيَّنا فيه كيف تغيرت صورة العالم كما كان يفهمها العصر الوسيط؛ بحيث أصبح الفكر السائد هو التصور الآلى للكون. والواقع أن نشأة العلم قد أعقبها مباشرة نزعة

شكية دينية كبرى، ففى أعقاب القرن السابع عشر ظهر أعظم عصر للشك فى العالم الحديث، هو "القرن الثامن عشر" الذى تمثل فى فلسفات عديدة منها فلسفة "هيوم" ومحاولته الكشف عن أصول علم للطبيعة الإنسانية يحل محل الميتافيزيقا التقليدية. ومن ثمَّ تحدثنا فى هذا الفصل أيضاً، عن مذهب الدين الطبيعى الذى آمن أتباعه بوجود إله ولكنهم أنكروا الأسرار الدينية المتصلة بألوهية المسيح وصلبه، ودعوا إلى التسامح وحق الإنسان فى حرية الفكر فى المسائل الدينية والسياسية على السواء مع الفصل بين الدين والدولة. ثم أنهينا هذا الفصل، بالحديث عن النظرة الدينية إلى العالم، حيث ظهرت احتجاجات وردود أفعال ضد النظرة الآلية والطبيعية التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر، وظهرت قوى أخرى عبرت عن نفسها فى مجالات عديدة (كالفن والأدب والفلسفة). وكانت ترى أن العالم لا تحكمه قوى فيزيائية عمياء، بل قوى روحية تتصورها معظم الديانات تحت اسم الله. ومن ثمَّ فإن العالم، وفقاً لهذه الوجهة من النظر، هو عبارة عن نظام أخلاقى ينتشر فيه الخير والفضيلة رغم جميع المظاهر التى تبدو عكس ذلك. ولقد تجسدت النظرة الدينية إلى العالم فى سلسلة من الفلسفات تشكل بالفعل التيار الجديد الذى يمثله "ديكارت" و"باركلى" و"كانط" و"هيجل" و"المثاليين بعد كانط" و"الرومانسية" و"المثالية المطلقة" فى انجلترا وأمريكا عند فلاسفة مثل "برادلى" و"بوزانكت" و"رويس"، لقد ظهر هذا التيار الجديد على نحو أكثر وضوحاً عند رائد الوجودية الأول سرن "كيركجور".

وأخيراً جاء **الفصل السادس** بعنوان: **" فلسفة الدين فى الفكر المعاصر"**، تناولنا فيه مفهوم الخبرة الدينية وعلاقتها بالأسطورة عن اثنين من المفكرين اللاهوتيين هما: "رودلف بولتمان" الذى نظر إلى مسائل العقيدة المسيحية نظرة نقدية، بغية التأكد من صحتها، واستبعد الطابع الأسطورى من العهد الجديد؛ وحاول تفسيره على نحو وجودى. وذلك من خلال مشروعه " الديميثولوجى" الذى وجد فيه بداية لإعادة تكوين العقل المعاصر على نحو يخلصه من الأسطورة التى ما زالت تهيمن على تفكيره فى عصر العلم.

والثاني: "ميرسيا إلياد" الذى لفت الانتباه إلى أن الأسطورة هى من أهم الاكتشافات فى القرن العشرين، وأن الإنسان ما زال يحمل بقايا ميثولوجية فى لا شعوره، يحياها فى وجدانه وفى أحلامه.

بقى علينا أن نقول إن موضوع هذا الكتاب يشكل مدخلاً إلى فلسفة الدين، إنه محاولة من جانبنا لطرق باب هذا المجال الخصب الذى لا تتوافر فيه دراسات باللغة العربية تتناسب مع أهميته البالغة. وقد حرصنا أن يأتى الكتاب كى يلائم المثقف المهموم بفلسفة الدين، فضلاً عن المتخصص الذى قد تدركه الحاجة إلى هذا المؤلَف، إذ انصب جهدى على أن يكون المعنى واضحاً، وأن تكون العبارة مبسطة قدر الإمكان ، دون الإخلال بالمضمون العلمى لموضوعات الكتاب.

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير.

دكتورة

أمـــل مـــبروك

obeikandl.com